تفريغ المجلس (٠٢٣)

"تتمة الباب الخامس - "انقراض الممالك البربرية" / ذكر العواصم الكبرى للبربر -قرطة- / الباب السادس في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائر: ١= تمهيد - ٢= أصل الرومان.[١])

[٧ - انقراض الممالك البربرية[٢]]

---

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

في المجلس الأخير كنا انتهينا من سرد أشهر رؤساء الممالك البربرية، وذكر المؤلف العلامة مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ ستة وعشرين رئيسا من رؤساء البربر، بدءً من أولهم وهو متوس، وانتهاء بآخرهم الذي هو بطليموس.

[٢] يعني الممالك التي تم إنشاؤها في هذه الأرض، في الشمال الإفريقي، كانت فيه ممالك ثم انقرضت بعد ذلك، وهذا هو حال الممالك والإمارات والدول والهيئات، كما يقول أهل التاريخ "عمر الدول كالطفل، يكون ضعيفا، فيشب حتى يقوى، ثم يعود بعد ذلك إلى الضعف، وهذا يختلف باختلاف ما يتمسك به القائمون على هذا البلد الذي يقوم، أو هذه الدولة وهذه المملكة والإمارة والإمبراطورية وهذه الرئاسة وهذه السلطة، سببها يقوم به القائمون عليه بالتمسك بالأصول التي تقوي حمكه ويتجعله يدوم، فبحسب تمسكهم بتلك الأصول يدوم لهم الأمر ومتى تخلوا عن ذلك عاد الأمر إلى الضعف، هذا كلام أهل التاريخ وفي نصوص الكتاب والسنة ما يدل على ذلك في الجملة.

قد رأيت كيف نشأت الممالك البربرية العظمى على عهد قرطاجنة[1]، وكيف تعرفت إليها رومة، وقد عجمت هاتان الدولتان القويتان[2] عود ملوك البربر، فووجدتاه صلبا لا يلين[3] لكل غامز[4] ورأتا هدم أستقلالهم[5] "دونه خرط القتاد"، فاكتفت قرطاجنة منهم بأن يكونوا معها- بحق الجوار- على رومة ذات المطامع الأشعبية[6] أما رومة فإنها بعد ما انتصرت بمن نصرها منهم لم تنفك تتداخل في شؤونهم وأذكاء جذوة[7] التنافس بينهم والزيادة في عددهم بتجزئة ممالكهم وشغلهم عن مهماتهم الداخلية بالاستنصار بهم في حروبها أو تقسيمهم على زعمائها المتحاربين، فقد رأيت أنهم- أيام تنازع مريوس

---

[1] بدأنا في أول الأمر وقلنا بعد أن جاء الفينيقيون ودخلوا هذه الأرض، ثم نزلت طائفة منهم في قرطاجنة، وابتنوا فيها ميناء وموردا تنزل فيهم بضائعهم البحرية وتحوّل، وسميت المنطقة بقطاجنة، وبنوها بهيئة يدفعون عن أنفسهم الضرر، وخصّوا باسم البونيقيين، وأرادوا أن يدخلوا إلى هذه الأرض، وكانوا أهل نقل حضارة، وليسوا بأهل استغلال كما هو حال الرومان، وعلى إثر ذلك بدأت الممالك البربرية.

[2] يعني دولة الفينيقيين وبالأدق البونيقيين، أو القرطاجنيين، نسبة إلى المحل الذي نزلوه وابتنوه، ودولة رومة، يعني جربوا جنس البربر فوجدوه صلبا.

[3] يعني ليس سهلا.

[4] من يريد أن يلحق به الضرر، أو أن يرميه، أو أن يظفر به، ويطلق الغمز على الإشارة بالعين، ويطلق على الطعن بالسكين أو الرمح أو باليد، ويطلق الغمز على الشيء المعنوي وهو القدح والطعن.

[5] أن يهدموا استقلال الممالك البربرية دونه خرط القتاد، خرط القتاد هذا مثل عربي، وخرط القتاد نوع شجر له ثمر لكنه تحيط به أشواك كثيرة، فيستحيل أن تصل إلى الثمرة ولا يصيبك الشوك، فإذن لتصل إلى الأمر يستحيل إلا أن تجرح يدك، وأن تلحق بها مضرة، فصار العرب يضربون بهذا المثل، يضربون المثل للشيء الذي يصعب أو يستحيل الوصول إليه، فيقولون "ودون ذلك خرط القتاد" أي لأجل الوصول إلى ذلك لا بد أن يكون حالك حال من إلا يصل إلا بخرط القتاد، هل يستطيع أن يقطف الثمر دون أن تصيبه أشواكها؟ لا يستطيع. فكأن لقرطاجنة ورومة أن هدم استقلال الممالك البربرية دونه خرط القتاد.

[6] أشعب تعرفونه، ذكرنا قصصه، ويكفيه كما قيل: إنه كان كلما سمع شيئا من الولائم ظن أنه أول واحد سيدعى.

[7] اللهيب وأول الفتيل.

وصيلة- منهم من كان مع الأول ومنهم من كان مع الثاني، وكذلك كانوا في تحارب بمبيوس وقيصر وعراك وكتافيوس وأنطونيوس[1].

مهما أمعن الباحث في علل سقوط تلك الممالك وأنعم النظر ألفى[2] أن علة العلل هي تداخل رومة في شؤونها[3] بتلك الصفة التي ذكرنا[4]. حتى أني عندما أريد من الفكر جولة في علل سقوط هاتيك الممالك

---

[1] حال رومة هذا هو، كأشعب لا تشبع من أخذ الثروات والمنافع، تريد أن تجعل البربر المنطقة على ممالك متناحرة ومتحاربة، وتتخذ دائما من هو حليف لها، ولا تجعلها تستقر في نظامها، بل دائما تستنصرها وتطلب منها النصرة والجند ليساعدوا معها في الحرب، فتبقى تلك المماليك دائما جندوها في خوار وضعف فلا يقوون بعد ذلك، ولا يستقر لهم حكم.

[2] أي وجد وانتهى إلى.

[3] علة العل، وسبب كل الأسباب هو تدخل رومة في شؤونها

[4] تبقى قريبة منها، تجعلها مرتبطة بها، تقسم ممالیکها، تشغلها بنفسها، تجعل العداوة فيما بينها، ممالك متناحرة، تثير النعرات، تثير النزعات، العصبية ..الخ مثل الآن، كالدول الكافرة التي تثير في أوساطنا نعرات وعصبيات وأفكار وروابط وأشياء أقل ما يقال فيها أنها قد تربط الناس بعادات معينة لا تصل إلى أن يكون بينها تناحر وتقاتل، ودعوة إلى الاستقلالية كما صار ينادى به هاهنا وهاهنا.

فعلة العلل تدخل رومة في شؤونها، بتلك الصفة الذي ذكرها، يعني سقوط مملكة أو دولة أو بلد أو رئاسة أوسلطنة أو إمارة له أسباب لاشك ولا ريب مهما طال بقاؤها، له أسباب، فبلد الأندلس قد بقي فيه المسلمون قرونا طويلة، وكان آخر الأمر أن أخرجوا منها بل قتلوا تقتيلا، بل منهم من تنصر عن كراهية، ومن يقرأ في تاريخ الأندلس وما وقع من النصارى ضد المسلمين، فإنه سيقرأ العجب العجاب، ومن أشهر ما ينقل في هذه الأفعال التي فعلها النصارى ما يسمونه بمحاكم التفتيش، كان يتعرض فيها المسلمون إلى عذاب من أعجب ما يكون، لا يستطيع الإنسان أن يتصوره، وكانت عندهم عيون تراقب المسلمين، فلا بد أن يتنصروا، فيشهدون عليهم حضور الكنائس كل يوم أحد، وأيضا يراقبونهم ويعرفون من تزوج ممن لم يتزوج، وإذا تزوج على مدار العام لاشك ولا ريب يكون له أولاد، فإذا ولد له فعلى مدار عام أو أقل يراجع وينظر إلى المولود، فإذا كان ذكرا هل يختتن أو لا، فيعرى وينظر إليه، فإذا رأوه اختتن علموا أنه لا يزال متمسكا بدينه فيقطع ويعذب هو وزوجته وأولاده ويقتلون، وتدوم هذه المراقبة عليهم إلى أن اضطر أهل الأندلس إلى الفرار منها، أتوا المغرب الأقصى الكبير، والجزائر، وأتوا إلى المغرب الأدنى، ومنهم من ذهب إلى المشرق، وغير ذلك.

فلا شك ولا ريب أن السقوط يكون له علته.

يذهب إلى البحث[1] عن أسباب بقائها وطول أمدها[2]، فيجد السبب الوحيد هو ثروة الوطن البربري وغناه بكثرة رجاله الأحرار أولي الشجاعة ووحدة الأفكار.

فقضاء رومة على يوغورطة لا يعجز أن يظهر مثل يرباص ويوبا الأول وعرابيون، ولكن لكل بداية نهاية ولكل شيء جدة وبلاء، فانتهى عمر الممالك البربرية بانتهاء حياة عرابيون ووفاة بوكوس الثالث، وجاء يوبا الثاني وبطليموس بعدهما مجردين من الروح البربرية التواقة إلى الاستقلال، فكان عصرهما عصر تثبيت لقدم السلطة الرومانية شمالا وإقامة سد على الجهات الجنوبية التي ربما تنبعث منها أشعة للحياة الاستقلالية بالجهات الشمالية.

حقا إن رومة كانت تعمل لإسقاط الملك البربري، وحقا إن تداخلها هو الذي أسقطه، وحقا إن استمرار حياته- مع استمرار ذلك التداخل- أمدا غير قصير مما يدعو إلى العجب والتنقيب عن السبب. ولكن هل نعفي البربر من تبعة ذلك السقوط؟ وهل تستطيع رومة أن تخرب ملكهم لو لم يخربوا هم أنفسهم وبيوتهم بأيديهم: وأيدي أعدائهم؟

نرجع إلى الصحائف السابقة نجد فيها جواب هذين السؤالين.

ذلك أن تداخل رومة أخذ يتزايد في عصر يوغورطة[3] واشتد بعده، وفي هذه المدة كانت ملوك البربر من أسرتين: أسرة نوميديا قديمة أسسها نراقاس، وأخرى موريطانية مبلغ علمنا عنها أنها حديثة أسسها بوكوس الأول.

ومن الأسرة الأولى كان أبطال الاستقلال البربري، ومن وجد منها مؤيدا للرومان- مثل مستنابعل وهميصال الثاني- على الأحرار من جنسه لم نجد له ضررا كبيرا ولا أثرا عميقا في هدم الملك البربري.

---

[1] أي الفكر.

[2] يعني يقول المبارك لما أجعل فكري يجول فيما هي أسباب سقوط الممالك البربرية، فينتقل الفكر إلى ما هي أسباب بقائها وطولها.

[3] لأن في عصر يوغرطة أحس أنه سيستقل عنهم وتكون هناك قوة.

أما الأسرة الثانية فقد كان مؤسسها بوكوس عاملا في القضاء على يوغورطة، وحفيده قتل يرباص، وابناه أعانا قيصر وتسببا في انتحار يوبا الأول.

وإذن نقول: إن على البربر تبعة سقوط تلك الممالك، وهم الذين أعانوا الرومان على بلوغ غايتهم، وإن زعماء هذه الطائفة المارجة هم بوكوس وعقِبه، غير أنا لا نقول: أنهم تسببوا في السقوط قصدا، وأعانوا الرومان حبا فيهم وبغضا لجنسهم، ولكن نرى أن سياستهم مبنية على الجبن وخشية الرومان، والطمع في بسط النفوذ وسعة السلطان[١]. أما خوفهم من الرومان ففي غير محله: لأن البربر بوطنهم ومعاقلهم الطبيعية أمنع من أن تأخذهم أمة بالقهر والغلبة[٢]، وأما طمعهم في التوسع على حساب غيرهم فإنما يحققه ويستفيد منه من جمع بين القوة والدهاء والشجاعة، وهؤلاء الملوك لم يكونوا كذلك[٣]، ولذلك استغل الرومان أعداؤهم الحقيقيون جهودهم، وقضوا بهم وطرهم[٤].

وقد جاء يوبا الثاني بعد سقوط الملك البربري- وهو من الأسرة الأولى- فكان عليه أن يعمل لتجديده وتحقيق ما كان يأمله سلفه، خصوصا وهو يعلم أن قيصر هو الذي قضى على حياة والده، وقسم مملكته بين أعدائه، وتربى في رومة، ودرس تاريخها، ولكنه رجل انهمك في المعارف وانقطع للعلوم ووقذته[٥] الحضارة، فلم تكن له روح مصينيسا ومصيبسا التي جمعت بين العلم والمحافظة على القومية[٦]، ولذلك صار يرى لرومة فضلا عليه أن منحته بعض ما كان يرثه من أبيه، فخدمها بإخلاص وهيأ لها الوطن البربري كي يتولى إدارته بنوها من غير واسطة، فكان عصره ومدة ابنه خاتمة لذلك الملك وتتمة لذلك السقوط.

---

[١] يعني لا يلزم أنهم كانوا يبغضون هذا الجنس ويحبون جنسا آخر، ولكن الطمع في الدنيا، وبقاء الملك، والجبن وخشية العدو والخوف منه، دعه يطمع ويبقى النفوذ على الملك ولو كان في جبن وخوار وذلة عياذا بالله.

[٢] تضاريسهم وتواقعهم لا يمكن ولا يمكّن غيرهم من التغلب عليهم.

[٣] في الغالب.

[٤] استغلوهم وقضوا حوائجهم.

[٥] الوقذ هو الضرب بالعصى إلى أن تصرعه. يعني أخذته الحضارة حتى غاب عن الأمور التي تحتاج أن تتركه يهتم ببلده.

[٦] كما سبق لما ذكر في قضية يوبا الثاني هذا، قال إنه يحبذ أن يكون الإنسان يستفيد من علوم الأجناس الأخرى لكن بشرط أن لا يغير جنسه إلى جنس آخر، ولغته إلى لغة أخرى، وينكر أصوله وجنسه.

أقدم من عرفاه من ملوك بربر الجزائر نرافاس، وكان موجودا سنة (٢٣٨) ق. م. وآخرهم بطليموس المقتول سنة (٤٠) م. فكان عمر الممالك البربرية العظمى نحوا من ثلاثة قرون.

لم ننسب ملوك البربر إلى قبائلهم لأن الباحثين في هذا الدور من مؤرخي اليونان والرومان الذين أخذ عنهم مؤرخو الإفرنج لا عناية لهم بالبحث في القبائل، وانما فعل ذلك مؤرخو العرب، وهم إنما عرفوا البربر ودونوا اخبارهم وفصلوا قبائلهم بعد الفتح على عهد الإسلام[١]. والظاهر أن القبائل التي ذكرها ابن خلدون بأسمائها وامكنتها لم تكن قريبة العهد من الفتح العربي، بل هي كذلك من قديم[٢]. وعليه يمكننا أن نقول: ان أسرة نارفاس- ومنها أكثر الملوك- من قبيلة كتامة، أما صيفاقس وبيت بوكوس فلا يمكننا نسبتها لقبيلة من القبائل التي ذكرها ابن خلدون: لعدم تحققنا لموضع نشأتهما[٣].

[١] التاريخ المنقول من القديم هو مما نقله الرومان واليونان، ولم يكن لهؤلاء اهتمام بقبائل البربر، وفصائلهم، وأنزالهم، وأين ينتهون، وحقائق جنسهم، وإنما ينقلون أخبارهم، من الذي فصّل؟ لمّا ذكرنا قبائل البربر كالبرانس والبتر، ثم ينقسمون إلى نفوسة، ومصمودة، وصنهاجة، وبني زيري، وغيرهم، من الذي تتبع هؤلاء؟ هم العرب، هم الذين فصلوا، لأن العرب معروفون بهذا، يعرفون الشعوب والقبائل وبعد القبيلة البطن والفخذ، إلى أن يتنهوا إلى العشائر.

[٢] فلهذا القبائل التي سماها العرب ليست قريبة من تواجد العرب، بل هي من القديم وتناقل الناس أخبارها، لكن الذي أوضحها وبينها ونقلها هم العرب.

[٣] فإذن استطاع معرفة بأن نارفاس ينتهي إلى كتامة.

[٨ - ذكر العواصم الكبرى لملوك البربر][1]

علمت مما سبق في هذا الباب أن من ملوك البربر من استولى على جميع التراب الجزائري بل على أغلب إفريقية الشمالية، ومنهم من استولى على بعضه؛ ودخل الباقي في حوزة مُلك آخر، وقد بلغ أحيانا أن تقاسم هذا الوطن أربعة ملوك، لا جرم تعددت عواصمهم بتعددهم، ولكن لم نعثر- بعد البحث- الا على ما يلي من تلك العواصم[2]:

[١ - قرطة (CIRTA)][3]

.. وكانت عاصمة نرفاس وأكثر الملوك من بعده، ولا نعلم تاريخ تأسيسها، ولكن من المحقق أن البربر أسسوها على عهد الفينيقيين، وأطلقوا عليها ذلك العلم الفينيقي. ومعناه المدينة فسرها كذلك اغسال.

هذه المدينة واقعة على جبل حجري مرتفع، يحيط به وادي مساغا (وادي الرمل) من أغلب جهاته ... وقد وصفها سترابون المؤرخ الروماني بأنها قلعة ممتنعة على من رامها[4]، وذكر المؤرخ ابيان: أن مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لاحد أن يفتحها عنوة.

وقال البكري: ليس يعرف أحصن منها. ويدل لذلك أن يوغورطة عكف على حصارها مدة عامين. ولولا المجاعة ما وجد سبيلا لفتحها. والوندال[5] لم يتمكنوا من فتحها، وهم الذين فتحوا قرطاجنة وروما، كما سيأتي.

---

[1] بعد أن ذكر الرؤوس والرؤساء جاء لذكر الممالك.

[2] العواصم التي حصّلوا عليها وذكروها.

[3] قلنا هي قسنطينة -مرت معنا-

[4] قسنطينة معروفة هي في مكان عال، ومعروفة بالجسور المعلقة، يعني يفصل بين كثير من مناطقها تلك الجسور، وأصلا هي منطقتها عالية، مدخلها في مرتفع.

[5] الذين جاؤوا من جنس المشرق.

استمرت هذه المدينة على عهد الملوك الاولين من البربر في تقدم ورقي من حيث التجارة والبناءات الأنيقة والمعارف، فكثر روادها واتسع عمرانها، ثم نقّصت من قيمتها وعمارتها كثرة الفتن على عهد هيمصال الثاني[١].

ولما منحها قيصر لستيوس أخذت في النمو، وازدهرت في العصر الروماني بكثرة السكان وسعة العمران وفنون العرفان. وفي أوائل القرن الرابع للميلاد وقعت حرب بين قسطنطين[٢] ومكسنتيوس فدخلها هذا الأخير وعاث فيها فسادا بقتل السكان وسبيهم وإحراق المدينة.

وبعد أن غلبه قسطنطين جدد بناءها، وأعاد على الناس أموالهم، ونشط الفلاحة، فعادت إليها عظمتها وعمرانها، وما زالت شمسها تبزغ[٣] وتأفل[٤]. وهي لهذا العهد كثيرة المباني واسعة العمران، كل سنة تزداد سعة، ولكن ما زالت لم تبلغ حدودها التي كانت عليها في العصر الروماني.

بقي لها اسمها الفينيقي حتى جاء ستيوس فدعيت "مستعمرة ستيوس" يريدون بالمستعمرة المدينة، وأطلقت عليها أعلام أخر، ولكن كلها لم تزاحم اسم قرطة ولم تبلغ شهرته، حتى جددها قسطنطين. وكانت له أخت تدعى قسطنطان. فسمى المدينة باسمها وعلق من ذلك الحين هذا العلم بها، وجر ذيل النسيان على ما قبله، وقد خفف العرب هذا العلم فقالوا: قسنطينة. والعامة اليوم تقول قسمطينه[٥].

---

[١] قرطة بعضهم يسميها سيرتا.

[٢] كان إمبراطورا رومانيا.

[٣] تظهر.

[٤] تضمحل وتذهب.

[٥] قلبوا النون ميما، فهذه إذن أولى عصائم البربر وكيف كان اسمها، قرطة، مستعمرة سيتسيوس، قسطنطان، وبعدها قسنطينة، ثم قسمطينة، بقلب النون ميما. وهو قلب بغير شرطه.

قدر لهذه العاصمة الخلود، فلم تزل منذ تأسيسها الى اليوم عاصمة مملكة أو ولاية[1]، وذلك لحسن موقعها وأهمية مركزها[2]، مما يدل على حذق البربر وفضل اختيارهم في وضع عواصمهم[3].

ولم تزل هيئتها القديمة سواء في أيام عظمتها أو في ليالي انحطاطها[4] إلى أن جاءت الدولة الفرنسية[5] فغيرت شوارعها، ورتبت ابنيتها على غير نسقها القديم. ولم يبق إلا موضع قصبتها[6] فانه كان منذ الدور البربري القديم قصبة الملوك ودار الحكم، وبذلك ذبت قيمتها التاريخية[7]، واحتيج في استخراج هيئتها الأولى إلى جهود كبيرة، وقد رسم تلك الهيئة بارس في كتابه قرطة[8].

---

[1] ولا تزال إلى الآن، وقسنطينة معروفة، وأنها ولاية كبيرة، ومحافظة كبيرة، ولها رقي ولها حضارة وقدم، هي منطقة رقي.

[2] موقعها موقع استراتيجي عظيم، مدخلها، مخرجها، الجسور التي فيها، لمن زارها، فإذا ذهبت تتعرف على هذا بالنظر، فموقعها جميل جدا، وتعرف هذا من زيارتها

[3] البربر لهم هذا الذوق كيف يختارون العواصم، والمناطق التي يتمركزون فيها، وما هو المكان الذي يُختار وكيف يكون البناء ونحو ذلك، فيكون المكان محميا وله أهمية.

[4] أتى بالأيام والليالي، لأن الأيام تطلق على النهار، فيها الضوء والإنارة، والليل يكون فيه الظلمة، والانحطاط نوع من الظلمة، مما يدل على أن المبارك الميلي كان صاحب بلاغة رَحِمَهُ اللهُ وذوق أدبي.

[5] بكسر الفاء كسرها الله.

[6] يوجد في قسنطينة أيضا منطقة القصبة، يعني المنطقة القديمة فيها.

[7] الذي أذهبها فرنسا، يقولون: أتت فرنسا فأحضرت معها الحضارة!! بل جاءت فكسرت الحضارة، وأرجعتنا إلى الوراء ب١٨٣٠سنة، فرنسا جاءت إلى الجزائر هدمتها، وأرجعتها إلى الخلف ١٣٠سنة، وأولاد فرنسا الآن يريدون الجزائر أن تترقى إلى ما ترقت إليه الدول الأوربية هذه في غضون ٦٠ سنة، والجميع يعلم أن البناء أصعب من الهدم، الهدم سهل، وهو من أسهل ما يكون، السارية هذه تحتها أساس، وتحته أساس، فبخمس ضربات يهدم، فالهدم سهل، لكن البناء؟ فكيف إذا كان الهدم سنوات قرن واثنين وثلاثين سنة! فهذا الهدم كم يحتاج لإعادة البناء؟ ليس سهلا.

[8] هذا المؤلف رسم الهيئة التي كانت في قسنطينة في كتابه "قرطة".

[٢ - صيغة]

هذه المدينة كانت عاصمة صيفاقس قبل أن ينتقل إلى قرطة، وهي في ساحل تلمسان على البحر الأبيض عند مصب نهر تافنا فيه، من المؤرخين من قال شرقية، ومنم من قال غربية.

وهي من مؤسسات الفينيقيين استولى عليها البربر فيما استولوا عليه من المدن الفينيقية بالسواحل، ولما استولى الرومان على موريطانيا اتخذوها مرسى من المراسي التي تنقل منها الحبوب الى رومة.

قد خربت وعفا رسمها، وذكر البكري مدينة سماها أرشقول غربي مصب نهر تافنا، ووصفها بما يدل على سعتها وعظمتها، غير أنه لم يذكر- كعادته في المدن القديمة- أنها أولية، فعلى أن صيغة شرقي تافنا تكون مدينة أرشقول غيرها، وعلى أنها غربية لا يبعد أن تكون أرشقول مؤسسة على أنقاضها. ثم وقفت في تاريخ غروت على ان أرشقول هي صيغة[١].

[٣ - يول].

هذه المدينة من المراسي الفينيقية، أسسها الفينيقيون، ثم دخلت أيدي البربر، وأول من اتخذها من ملوكهم عاصمة بوكوس الثاني، وعلى عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة، بني بها المباني الجميلة والقصور الأنيقة، وآثارها تدل على عظمتها، وعلى أن اليد التي شاد بها يوبا هذه المدينة يد إغريقية إفريقية وليست رومانية[٢]، وقد اتخذت دار لحفظ تلك الآثار، وصنعت تماثيل على نمطها نقلت إلى متاحف أخرى من متاحف الآثار.

---

[١] هي نفسها تلمسان.

[٢] وبقايا الآثار الرومانية لأنه اشتهرت بدولتهم كما سيأتي في بقاء الرومان في الجزائر.

ولغرام يوبا بكافله أغسطس[١] قيصر نسب هذه المدينة إليه تخليدا لذكره، فسماها قيصرية، وهذا نظير ما يفعله الأوربيون اليوم، ويكثرون منه، فينسبون مدنا وشوارع وحارات إلى عظمائهم[٢]، يفعلون ذلك بالأوطان التي استولوا عليها إعفاء لعظماء أهلها حتى يصبح المحكومون لهم وليس بين عينهم وفي آذانهم إلا رجال غيرهم.

وتعرف هذه المدينة اليوم باسم شرشال، ولا أدري متى حدث لها هذا العلم؟ غير أن البكري ذكرها به، وهو من أهل القرن الخامس الهجري[٣].

---

[١] قلنا إن يوبا تربى عند أغسطس في روما ونشأ على ثقافته.

[٢] مثلما فعلت فرنسا هنا، (Rovigo)، (Lavigeri) موجود عندنا في العاصمة في برج الكيفان، وأسسوا فيها كنيسة على اسم هذا القس، والحمد لله ذهب هذا المستعمر الغاشم، وانتهى أمره ولله الحمد، وبقيت الكنيسة على قدمها وعدم استعمالها، لكن لا تريد فرنسا أن تذهب هذه الكنيسة ففي عهد الرئيس الشاذلي رحمه الله، حول اسمها إلى "المحمدية" نسبة إلى محمد ﷺ، عني أنتم بنيتم كنيسة هناك وسميتموها باسم القس، فنحن نرجعها إلى أصلنا فنسميها باسم "المحمدية"، وبقيت الكنيسة إلى هذا الزمن، قبل قريب من أربع أو خمس أو ست سنوات، تمكنت الدولة أن تستعيد هذه الكنيسة وتعزم على إزالتها، وأزيلت وعلى أرضها شيد المسجد الذي يسمى "المسجد الأعظم"، يدلكم على أن في البلد فيه أناس خير، أناس مترابطة بدينها وبوطنها وبلغتها، وبثوابتها، وإن كان فيه أناس منهم من انسلخ وسُلخ، أو على غير أصوله وثوابته، لكن الحمد لله فيه من هو متمسك بهذه الأصول.
ومن ذلك الشيء العجيب الذي يلفت النظر، في إحدى النقود التي كانت عندنا قديما، الكبار لحقوا بها، مكتوب فيها الآية {إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ}[الأنبياء٩٢، دائرة "عشرة دورو" من الخلف مكتوب عليها "الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية" مكتوب فيها ٥٠ سنتيم، وفي الجهة الأخرى مكتوب: خمسة بالهجري وهاء التي هي الهجري، وألف طويلة التي هي ١٥، وفوقها مكة، ومئذنة المسجد النبوي، وهذه كلها تعاليم شرعية، فهذا الذي صممها، هذا يدل على ارتباطه بثوابته ارتباطا قويا، فنسأل الله تعالى أن يبقي لنا هؤلاء الذين لهم تمسك بأصولهم وثوابتهم ومقوماتهم، وأن يجعل ﷻ الأمر إلى أيديهم لبقاء هذا البلد والوطن على أصوله الثابتة التي هي التمسك بهذا الدين وهذه اللغة، ونشره.
وكذلك (rue d’isly)، (Notre-dame d’Afrique)، فينسبونها إلى رجالاتهم، حتى يطول الزمان فيصير أولاد البلد لا يعرفون إلا رجال هذا المستعمر الغاشم.

[٣] ذكرها بهذا الاسم "شرشال" لكن متى تحولت من "يول" إلى "شرشال" هذا ليس لنا فيه شيء قطعي.

[٤ – هبون]

ذكر غروت أنها عاصمة يوبا الأول، وقد اتخذها جنسريق الوندالي عاصمته قبل أن ينتقل إلى قرطاجنة، ثم كانت عاصمة بعض الأمراء في العصر الإسلامي.

وهي من المؤسسات الأولى للفينيقيين التي يرجع تاريخا إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وقد تصرف العرب في هذا الاسم فدعوها بونة[١]، قال البكري: "ومدينة بونة أولية، وهي مدينة أقشتين (القديس أغسطين) العالم بدين النصرانية[٢]، وهي على ساحل البحر في نشز[٣] من الأرض منيع[٤] مطل على مدينة سبوس. وتسمى اليوم مدينة زاوي، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق وحمام، وهي ذات ثمر وزرع. وقد سورت[٥] بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة".

ولكثرة شجر العناب بها أطلق عليها مدينة العناب حتى صارت تعرف اليوم بعنابة[٦].

هذا مما وجدنا من عواصم ملوك البربر القدماء منصوصا عليه. وهناك مدن كثيرة منها ما يحتمل أن يكون عاصمة لبعضهم مثل بجاية وسطيف، ولكنا لم نجد من صرح بأن واحدة منهما كانت عاصمة

[١] وهي عنابة، وفيها من العلماء الكثر منهم أبو عبد الملك البوني، وينقل عنه الحافظ ابن حجر كثيرا في الفتح، يقول: وقال أبو عبد الملك البوني، من بونة يعني من عنابة.

[٢] هو لم يكن نصرانيا ثم تنصر وصار من القساوسة وكبرائهم، وعندهم ١٢٠٠٠ مذهبا ورأيا، فصار يجمع ويقلّص، إلى أن انتهوا إلى بعض الآراء وقللوا الخلاف ويعتبر هذا من المراحل الكبرى في تحول المذهب النصراني إلى ما هم عليه الآن، كما مر معنا في تفسير ابن كثير، قد ذكرنا شيئا مما نقله الحافظ ابن كثير $ بعد أن اجتمعت اليعقوبية والمستورية وغيرها.

[٣] المرتفع.

[٤] يصعب التغلب عليه.

[٥] يعني أديرت بسور.

[٦] تسمى بونا أصلها هبون، وتسمى العناب، والآن تسمى عنابة، وفيه من العلماء من ينسب بالعنابي، عالم له كتاب في علم العروض "القافية وأنواعها عيوبها" يسمى العنابي، لكن المترجم له قال ليس نسبة إلى عنابة، وإنما إلى اللون أو الشجر الذي هو العناب وليس إلى المدينة، والله أعلم.

لملك من الملوك، ومما لا ريب فيه أن هناك عواصم غير تلك الأربع، فإننا نجهل عاصمة يوغورطة قبل أن يفتح قرطة، ونجهل أيضا عاصمتي ماصنتة وعرابيون[١].

[١] فهذه أكثر الممالك التي ذكرها: قرطة التي هي قسنطينة، وصيغة التي هي تلمسان، ويول التي شرشال، وهبون التي هي عنابة.

انتهى الباب الخامس الذي في ذكر البربر وحالهم على أهل قرطاجنة وجمهورية رومة.

الباب السادس

في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائر[1]

[١ - تمهيد]

الرومان أمة من اللطتين، ينسبون إلى عاصمة دولتهم رومة. وهي مدينة مؤسسة وسط إيطاليا، أسسها- على ما يقول الرومان- روملوس سنة (٧٥٣) ق. م.

وإيطاليا جزيرة مستطيلة، الجهة الشرقية منها عديمة السهول والمراسي، والجهة الغربية بخلافها ذات سهول ومراس، وهي التي كونت تاريخ إيطاليا[2]. أما جنوبها فقليل العمارة[3]، اتخذه اليونان مركزا ينزلون به في سفراتهم البحرية.

وهي متوسطة في العالم القديم: واقعة بين عالم الشرق المتمدن، وعالم الغرب المتوحش.

وكان سكانها أهل حراثة وقيام على المواشي، ثم تعلموا الملاحة والتجارة من بعد، وكان بها أمم مختلفة لا صلة لها بعضها ببعض.

وعلى أيدي الرومان تكونت الوحدة الإيطالية، حيث أسسوا حكومة ملوكية، اختلف في بدايتها. ودامت إلى سنة (٥٠٩) ق. م ثم خلفتها الجمهورية[4]، وفي عهدها تمكن الرومان من حماية أنفسهم فمدوا أعينهم إلى غيرهم من الأمم قصدا للتوسع وسعيا وراء الثروة ولذة النفوذ.

حاربوا قرطاجنة[5] معلمتهم المدنية حروبا طوالا يشيب لهولها الولدان[6]، وانتصروا عليها أخيرا بما امتازوا به من نكث العهود وخيانة الشرف، وأخذوا في فتح البلدان واستعمار الأوطان، حتى ملكوا

---

[1] وهذا في الحقيقة تلخيص لما سبق، لهذا نسترسل في قراءته وإذا كان فيه تعليق نعلّق.

[2] يعني الجهة الغربية. وهي التي ينزلها "الحرّاقة".

[3] جهة شكل الحذاء.

[4] بعد المملكة.

[5] الفينيقيون هم الذين علموهم.

[6] وقد مرت معنا ومنها الحروب البونيقية الأولى والثانية.

جل المعمور في القرنين الثاني والاول (ق. م)، فبسطوا نفوذهم على إفريقية الشمالية تدريجا، وعلى مصر والشام واليونان ومقدونيا وجرمانية وإلغاليا والأندلس.

أصبحت دولتهم سيدة العالم القديم، واقتبسوا من الأمم التي استولوا عليها أصول المدينة[١]: أساليب الحضارة وفنون العلوم، وجروا في ذلك إلى مدى بعيد، حتى أن أوروبا اليوم لم تزل تقتفي أثرهم في الاستعمار[٢]، وتستمد من نظمهم وسياستهم، وتبحث عن أسباب فوزهم وعلل خيبتهم.

ولموقع وطنهم الجغرافي دخل كبير فيما بلغوه من عظمة وسعة سلطان، وبعد الجمهورية جاءت الامبراطورية[٣]. فتمكنت من حفظ سيادتها على العالم الروماني، حتى انقسمت أواخر القرن الرابع للميلاد، ومن ذلك الحين أخذت المملكة الغربية تضعف وتتلاشى حتى سقطت سنة (٤٧٦) للميلاد، وذلك بما نال أهلها من بطر النعمة وسعة السلطان، فانغمسوا في الملاذ واشتغلوا بالملاهي، فضعفوا عن القيام بأعباء الملك، وقد قال كاتب روماني: "إن انتصارات رومة هي علة سقوطها"[٤].

---

[١] هم أهل توحش، لكن وجدوا المدنية عند غيرهم فأخذوها.

[٢] هذا ديدنهم وشأنهم.

[٣] إذن مملكة، بعدها جمهورية، بعدها امبراطورية.

[٤] الاشتغال بالملاذ والملاهي من أسباب سقوط كثير من البلدان، وذكر بعض الفضلاء أن الإمام القرطبي، صاحب كتاب "المفهم من تلخيص صحيح مسلم" ذكر بعض مواضع شرح الكتاب أن من أسباب سقوط الأندلس اشتغالها بالملاهي والملاذ، والاشتغال بذلك عن أعباء الملك والحكم، فأدى ذلك إلى سقوطها، لأن الملك والحكم يحتاج إلى الحزم والعزم والقضاء والتفطن.

[٢ - أصل الرومان]

كانت تقطن ايطاليا في فجر التاريخ أمم مختلفة. منها الغاليا والأتروسك والإغريق واللطين، وموطن اللطين بين الاغريق والاتروسك، وكانت هذه الامة متوحشة، وأهل الجبال منها أصحاب مواش، وأهل السهول فلاحون، ومن هؤلاء الفلاحين ظهرت الدولة الرومانية.

وذكر ابن خلدون: أن اللطين من يافث بن نوح[١]، وذكر في أبناء يافث يونان وماغوغ. ثم اختلف نقله في نسبة اللطين إلى يونان أو ماغوغ: فنقل عن اهروشيوش مؤرخ الرومان: "إن القوط واللطين من ماغوغ" ونقل عن الإسرائيليين أن يونان "كان له من الولد أربعة، وهم: داوود بن واليشا وكيتم وترشيش. وأن كيتم من هؤلاء الأربعة هو أبو الروم: والباقي يونان" والروم عنده هم الرومان، وليس من فرق بينهما من حيث الأصل. وذكر في موضع آخر ليونان خمسة أبناء. وسماهم هكذا: " كيتم وحجيلة وترشوش ودودانم وايشاي".

وفي النص الأول تحريف يظهر صوابه من النص الثاني ذلك إنه قال أولا: داوود بن واليشا. وقضيته أن يكون أبناء يونان ثلاثة فقط. وقال ثانيا: دودانم وايشاي. فايشأي هو إليشا، ودودانم هو صواب كلمة داوود بن، وبذلك يتم عدد الأبناء أربعة كما قال[٢].

وكلمة ترشيش أو ترشوش عنده قريبة من كلمة الاتروسك عند مؤرخي الإفرنج، وهم يقولون: إن الاتروسك أمة مجهولة الأصل واللغة. فإن صح حمل الكلمتين على أمة واحدة- كما يظهر لنا- كان الاتروسك إخوان اللطين. ويقربه[٣] الجوار.

والله أعلم.

---

[١] لأن نوحا جاء منه ثلاثة من الولد، حام وسام ويافث.

[٢] إذن دودانم هو الأول، وإيشاي هو الثاني، ثم كيتم، وترشيش.

[٣] يعني هذا القول، يعني أصلهم ينتهي إلى يافث.

نتوقف عند تأسيس دولة الرومان، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.